مقدمة

اكتشاف العبودية في الجوار

عادة ما تزدهر عملية الاتّجار بالبشر في الخفاء. ويمكننا إغماض أعيننا عنها لأنها تحدث لأناس آخرين في أماكن بعيدة. وباعتقادي أن هذه العملية تُعدّ جريمة تشمل كلّ بلد في هذا العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة.

هيلاري كلنتون، وزيرة الخارجية الأمريكية [1].

يوجد في هذا العالم اليوم[2] أكثر من 30 مليون إنسان يُعاملون معاملة العبيد؛ حيث تُجبر الفتيات والأولاد والنساء والرجال من مختلف الأعمار على العمل في أكواخ النسيج في نيبال، وبيع أجسادهم في مواخير البغاء في روما، وتكسير الصخور في مقالع الحجارة في باكستان، وخوض معارك في غابات إفريقية، وخياطة الثياب في مصانع الملابس في كاليفورنيا.

وإذا ما تركت وسط أي مدينة كبرى في العالم، وذهبت إلى أماكن الاكتظاظ السكانيّ، والأماكن الخلفية فيها، فمن المحتمل أن تجد التجارة بالبشر عملية شائعة هناك. بل وربما تكتشف أن العبودية تُمارس في جوار بيتك، وحتى في حديقتك الخلفية.

في منطقة جون سان فرانسيسكو، اعتدت وزوجتي على تناول وجبة العشاء في مطعم هندي قريب من بيتنا، ولكننا لم نعرف أن من يطبخون عشاءنا ويقدمونه لنا، ويغسلون الصحون في مطعم باساند مدراس كانوا عبيدًا.

ولم تُكتشف شبكة الاتّجار بالبشر في هذه المنطقة إلا بعد وقوع حادث مأساوي، وذلك عندما عثرت فتاة على زميلتيها في السكن؛ شانتي براتيباتي، 17 عامًا، وشقيقتها لاليتا، 15 عامًا، مُغمى عليهما.

اتصلت الفتاة بمالك المطعم الذي يعملُن لديه، واسمه لاكير يدي بُندا، والذي يملك عدة مطاعم وأكثر من 1000 شقة سكنية في كارولينا الشمالية. وعندما وصله إلى المكان، تبين أن الإغماء كان بسبب استنشاق غاز ثاني أكسيد الكربون المنبعث من فتحة تهوية مغلقة. وبدلا من نقل الفتاتين إلى المستشفى، لفّهما وأصدقاء له في سجادة، وألقوا بهما في شاحنة. وعندما حاول بُندا ومجموعته وضع الفتاة التي أبلغت عن الحادث في الشاحنة، قاومتهم بشدة ورفضت ركوبها. وللمصادفة، مرّت مارسيا بولي، وهي إحدى الساكنات في العمارة، بجانب الشاحنة، وشاهدت عدة رجال يحاولون إدخال السجادة الملفوفة فيها، في حين كانت رِجْل إنسان تتدلى من أحد أطرافها. وعندما أبطأت المرأة من سرعة سيارتها لتتحقق مما يجري، أصيبت بالرعب وهي ترى رجالا يحاولون إجبار فتاة على ركوب الشاحنة. قفزت بولي من سيارتها، وحاولت ردع الرجال عن فعلتهم، ولكن دون جدوى، فما كان منها إلا إيقاف إحدى السيارات المارة، والطلب إلى سائقها الاتصال برقم شرطة النجدة 911، وإبلاغهم عن عملية اختطاف تجري هنا. بعدئذ، وصلت سيارة الشرطة بسرعة، واعتقلت بُندا وأصدقاءه.

لم تستعد شانتي براتيباتي وعيها أبدًا، وتوفيت في أحد المشافي المحلية. وتبيّن من التحقيقات أن بُندا وعدة أفراد من عائلته استخدموا تأشيرات دخول مزوّرة، وهويات شخصية مزيّفة لتهريب مئات البالغين والأطفال من الهند إلى داخل الولايات المتحدة. وفي حالات كثيرة، تمكن بُندا من الحصول على تأشيرات الدخول بدعوى أن من يطلبها لهم خبراء تقنيين مطلوبين لشركة برامج حاسوبية. وفي الحقيقة أن بُندا كان يستغلهم في مطاعمه وشركاته المتعددة؛ خدمًا وطباخين وغسالين. لقد كان يجبرهم على العمل لساعات طويلة وبأجور متدنية جدًّا، وكانوا يدفعون النقود التي يكسبونها لدفع إيجار الشقق التي يؤجرها لهم. وكان يهددهم بتسليمهم إلى السلطات بصفتهم مهاجرين غير شرعيين إذا ما حاولوا الهرب.

لـم تكن قضية بُندا حالة شاذة ولا فريـدة؛ فكما حدثت في المنطقة التي أعيش فيها، فإنها قد تحدث في منطقتك أيضًا، خاصة إذا علمت أن هناك أكثر من مئة ألف شخص يعيشون حياة عبودية في الولايات المتحدة حاليًّا، كما يجري تهريب نحو سبعة عشر ألف مهاجر غير شرعي عبر الحدود سنويًّا[3]. وقد أُحيلت الكثير من قضايا الاتّجار بالبشر إلى المحاكم الأمريكية في كثير من المدن، وفي كل ولاية من الولايات الأمريكية تقريبًا.

ومثلمـا كان حال العبيد الذيـن نُقلوا إلى شواطئ أمريـكا قبل مئتي عام، فإن عبيد اليوم محرومون من حرية التحكم بمصائرهم؛ فهم يُجبرون على أداء أعمال لصالح مَن يستعبدونهم. وإذا ما حاولوا الهروب من قيود أسيادهم، فإنهم وعائلاتهم قد يتعرضون للأذى والانتقام.

وقـد اتضح حجـم أزمة الاتّجار بالبشر على مستـوى العالم عندما تحدث الرئيس جورج بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر 2003، حيث قـال: في كل عام، يتمّ شراء وبيـع أو تهريب ما بين 800000 إلى 900000 إنسان عبر الحدود الدولية العالمية. وشدّد على أن جريمة الاتّجار بالبشر لأي سبب كان يجـب ألّا تُعطى الفرصة للازدهار في عصرنا الحالـي[4]. كما أشار إلى أن هذه التجـارة تستهدف النسـاء والأطفال الضعفاء، وتغذّي شبكـة الجريمة المنظمة التي تهدد الأمن العالمي.

وفـي الحقيقة أن الرئيس بوش لم يبالغ فـي وصف الأزمة التي وصلت إلى حد خطير منذ إلقاء خطابه في عام 2003، ذلك أن عملية الاتّجار بالبشر تنافس حاليًّا تهريب المخدرات، وتجارة السلاح غير المشروعة ضمن الأنشطة الإجرامية فـي العالم. وجاء فـي تقرير لمنظمة العمـل الدولية أن ضحايـا العمل القسري يُحرمـون مـن أكثر من عشرين بليـون دولار من أجورهـم، ولا يشمل هذا الرّقم ضحايا تجارة الجنس[5].

وإقرارًا من الكونغرس الأمريكي في أن الاتّجار بالبشر أصبح خارجًا عن السيطرة، فقد استحدث منصبًا رفيعًا في وزارة الخارجية للإشراف على محاربة هذه العملية. ونتيجة لذلك، عيّن الرئيس بوش لهذا المنصب عضو الكونغرس الأسبق جون ميلر في عام 2003 برتبة سفير. وخلفه في هذا المنصب السفير لويس سبيباكا.

إنّ مهمة هذا المكتب تتركز في مراقبة الاتّجار بالبشر ومحاربته، وكذلك مساعدة الحكومات وتحفيزها على وقف أي تورط في تجارة الرّقيق العالمية. ومن أجل هذه الغاية، ينشر المكتب تقريرا عن الاتّجار بالبشر. وقد أورد أول تقرير في عام 2001 أسماء 82 دولة فقط، مرتبة حسب جهودها في محاربة الاتّجار بالبشر على أرضها، في حين ضم تقرير عام 2009 أسماء 175 دولة [6].

ومع أنه لا توجد دولة في العالم ترغب في أن يُشار إليها بأنها ملجأ للمُستعبَدين والمُهرَّبين، إلا أن هناك 145 دولة من دول العالم جاءت في الترتيب الثاني أو أقل فيما يتعلق بجهود محاربة الاتّجار بالبشر. وربما تكون هذه الدول مصدر هذه التجارة، أو نقطة عبور لها، أو الوجهة النهائية لضحايا هذه العملية. وفي بعض الحالات، تكون هذه الدول قاعدة لهذه الأنشطة مجتمعة؛ مصدرًا وعبورًا ومُستقرًّا. وتشير الدراسات المكثفة التي تجريها وزارة الخارجية الأمريكية إلى أن هذه الآفة متفشّية في دول العالم قاطبة، بما في ذلك الولايات المتحدة نفسها.

وكثيرًا ما تكون ردة فعل بعض الناس عنيفة عند سماعهم استخدام كلمة العبودية لوصف طرق الاستغلال الحديثة وأساليبه؛ لأن العقل الجمعي الأوروبي مُشبع بفكرة أن العبودية انتهت في القرن التاسع عشر. ويبدو من الطبيعي جدًّا أن تقرأ في الصحف وصفًا لأوضاع تشبه ظروف العبودية في أحد مناجم النحاس في بوليفيا؛ حيث يُختطف العمال، ويُجبرون على العمل بالسخرة من دون أجر، ويُمنعون من مغادرة المنجم أيضا. فَلِمَ يشير هذا الكاتب إلى الأوضاع التي يعيشها

العمال كما لو أنها من أصناف العبودية؟ إنّ السبب في ذلك هو أن الكاتب مقتنع بالأسطورة الثقافية القائلة بأن العبودية الحقيقية قد اختفت منذ زمن بعيد.

ومما لا شك فيه أنّه كان يومًا مشهودًا ذلك اليوم في عام 1833، عندما أقرّ مجلس العموم البريطاني قانون إلغاء العبودية، والذي بموجبه أعاد الحرية إلى العبيد جميعهم الذين كانوا محتجزين أسرى في أنحاء الإمبراطورية البريطانية. كما أن التعديل الثالث عشر على الدستور الأمريكي الذي أُقرّ في عام 1865 في نهاية الحرب الأهلية، لم يترك أي غموض فيما يتعلق بالوضع القانوني للعبيد في أمريكا، حيث جاء في النص: (لن يكون هناك أي وجود للعبودية أو الخدمة غير الطوعية داخل الولايات المتحدة، أو أي مكان يتبع سلطات هذه الولايات).

وفي الحقيقة أن سنّ القوانين التي تجرّم تجارة العبيد وتحرّمها كان انجازًا كبيرًا لقضية الحرية الإنسانية. ومع أن العبودية استمرت لعدة عقود بعد ذلك، إلا أن هذه القوانين التي انتشرت في دول العالم كلّها تقريبًا، أعطت المناهضين للعبودية أداة فاعلة لمحاكمة من يستعبدون الناس بممارسات لا إنسانية.

ومما يُؤسف له أننا نرى اليوم عودة هذه السوق السوداء وقد عادت إلى الظهور مرة أخرى. ويشترك في هذا المشروع الإجرامي أشرار محليون، وشبكات دولية متطورة. كما يشارك فساد القائمين على تطبيق القانون، والمسؤولون الحكوميون بدور رئيس في رواج هذه السوق. إنّ الاتّجار بالبشر لا ينحصر في منطقة بعينها في العالم؛ فهذه التجارة لا تحترم حدودا. ولهذا، لا يمكن إلغاء العبودية الجديدة بمجرد جّرة قلم مثلما فعل أبراهام لينكولن عندما وقّع إعلان تحرير العبيد.

فالاتحاد الأوروبي مثلا، يواجه صعوبة في كيفية وقف تدفق مئة وعشرين ألف امرأة وطفل يُهرّبون إلى دول الاتحاد كل عام. ويُختطف معظم هؤلاء العبيد من إفريقية، أو من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة، ويُهرَّبون عبر الحدود

الممتـدة. وينتهي 90% من هـؤلاء المهرّبين في مواخير تجارة الجنس الأوروبية المتفشية [7].

فـي عـام 2002، أبـدى وزراء الاتحاد الأوروبـي اهتمامًـا بمحاربة تجارة العبيـد، عندما طلبوا من جميع الأعضاء تطبيـق(معاهدة) بروتوكول باليرمو، وهي المبـادرة التي اتخذتها الأمـم المتحدة لاعتماد إجـراءات فاعلة لمحاربة الاتّجـار بالبشر عبر الحدود. وقد أطلقـت معظم الدول الأوروبية حملات توعية طموحة، ورصدت ميزانيات لوكالات محاربة التهريب. ورغم كلّ هذا، فقد استطاع المهرِّبون المحافظة على تدفق منتظم لموجات جديدة من عبيد تجارة الجنس إلى المنطقة. وقد اعترف بهذا الوضع وزير خارجية الاتحاد بينتيا فيريروا – والدنر في عام 2006، بقوله: على الرغم من الجهود الجبارة لمعالجة هذه المشكلة، إلا أن الحقيقة المقلقة هي أن تجارة تهريب البشر تدرّ ربحًا أكثر من تجارة تهريب السلاح أحيانا [8].

وفـي الواقع، أن عدد العبيد الذين يقعـون في مصائد الرق اليوم أكثر من أولئك الذين كانوا يُستبدلون في تجارة العبيد عبر الأطلسي، والتي استمرت لأربعة قرون. ولا يمكن لأحد الشعور بقسوة هذه التجارة ووحشيتها أكثر من أطفال الدول النامية الذين يقعون فريسة لصائدي العبيد.

فـي عام 2004، حملت دراسة للأمم المتحـدة عنوان عشرة ملايين طفل يجري استغلالهم للأعمـال المنزلية، وهو خلاصة تقرير عن استغلال الأطفال عالميًّـا. وهذا العنوان يغني عن الشرح. وجـاء في التقرير أن سبعمئة ألف طفل يُجبرون على العمل في المنازل في إندونيسيا وحدها. وهناك أرقام مذهلة أخرى؛ ففي البرازيل (559.000)، وفي الباكستان (264.000)، وفي هاييتي (250.000)، وفـي كينيا (200.000). ويشير تقرير الأمم المتحدة إلى أن الأطفال يظلّون في الخدمة لفترات زمنية طويلة بسبب عدم اكتشاف ما هم عليه من عبودية من قِبل

أحد؛ فهؤلاء الصغار غالبًا ما يكونون غير مرئيين لمجتمعاتهم، ويظلون يكدحون لساعات طويلة دون أجر، أو مقابل أجر لا يُذكر، كما أنّهم محرومون من فرص اللهو والتعليم[9].

وغالبًا ما يُرفق مُلصق غير مرئي بأوصاف العبودية الحديثة. ومثلما كنت لا أشك في أن مطعمي المفضل كان ملجأ لشبكة تهريب، فمن المحتمل أننا نصادف العبودية في طريقنا كل يوم دون أن ننتبه إليها؛ فقد نمرّ بموقع إنشاء دون أن يخطر ببالنا فيما إذا كان العمال هناك يعملون بمحض إرادتهم أم رغما عنهم. أو ربما نقود سياراتنا في شوارع المدينة ليلا، ونشاهد فتيات صغيرات يبعن أجسادهن في إحدى زوايا الشارع، ونتساءل: كيف يمكن لهن اختيار مثل هذه الحياة!

وهنا تكمن المفارقة؛ فالعبودية ليست مخفية في الواقع، بل هي مرئية للجميع باستثناء حالات نادرة. وفي الحقيقة، فإننا لا نتوقع وجودها في أماكن تحترم نفسها.

في عام 2009، وفي بلدة وول نت كريك الريفية الحالمة، في كاليفورنيا، أدينت وكيلة عقارات وأم لثلاثة أطفال في قضية عبودية منزلية Walnut (Creek). وجاء في حيثيات القضية أن مابيل دي لاروزا دان، 46 عامًا، أجبرت امرأة شابة من البيرو على الطبخ، والغسيل، ورعاية أطفالها الصغار مدة عامين. وقد أحضرت دان تلك المرأة إلى الولايات المتحدة بأعذار كاذبة، وصادرت جواز سفرها، وأوهمتها بأنها سوف تتهمها بالسرقة إذا ما حاولت الهرب. وقد كانت تلك المرأة تعمل 15 ساعة يوميًّا طوال الأسبوع. وفي المساء، تطرح نفسها على أرضية غرفة المعيشة. ولم تكتف دان بذلك، بل منعتها من مشاهدة محطات التلفاز الأسبانية، والإنجليزية، وحرمتها من كل وسيلة اتصال بأهلها في البيرو.

ولن نندهش إذا ما علمنا بأن الضالعين في هذه التجارة يجبرون الأطفال على أعمال السخرة في مزارع الكاكاو في ساحل العاج[10]، ولكن قد لا يخطر ببالنا أن يقوم شخص على قدر كبير من الأهمية بممارسة هذه الفعلة الشنيعة؛ فكيم ميتسون تخجل من الظهور في مجتمعها في منطقة نيو إنجلند، في الجزء الشمالي الغربي للولايات المتحدة، بعد اكتشاف أن كاهن الكنسية المحلية في قرية ريفية بالقرب من ماساشوسيتس قد اتخذها جارية مستعبدة لممارسة الجنس مدة خمس سنوات دون أن يثير حوله أي شكوك داخل المجتمع.

كان والدا كيم يعيشان في مخيم للاجئين التبتيين المنفيين في شمال الهند. وعندما بلغت سنّ المراهقة، عرّفها زوج أختها على كاهن أمريكي كان يزور المنطقة. وقد وعد الكاهن المبّجل أن يأخذ كيم إلى الولايات المتحدة، حيث سيوفر لها تعليمًا منتظمًا وفرصًا لتحسين حياتها. وتقول كيم: لقد وعد والديّ بأنه سوف يعاملني مثل ابنته تمامًا[11].

وبدوره، ظل زوج أختها يصر على عائلتها لتسمح لها بالذهاب، حتى أنه عرض مرافقتها إلى مدينة دلهي للمساعدة في الحصول على تأشيرة السفر إلى الولايات المتحدة. وأخيرا، توصل زوج أختها إلى تسوية مالية مع الكاهن لتهريب كيم.

عندما وصلت كيم إلى الولايات المتحدة، كان عمرها 16 عامًا، وعاشت هناك حياة مزدوجة. كان كل شيء يبدو طبيعيًّا بالنسبة للمشاهد العادي؛ كانت كيم تذهب إلى المدرسة الثانوية المحلية، وشاركت في فريق سباق المضمار، وكانت تحضر صلاة الأحد في الكنيسة. وكان لدى الكاهن زوجة وابنة بالتبني تعيشان معه في البيت نفسه. أما خلف الأبواب المغلقة، فقد كانت كيم خادمة المنزل؛ تقوم بجميع أعمال الطهي، وتنظف الملابس وتكويها، بل وتقوم بتنظيف أرضية الكنيسة أيضا.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل كان يمارس الجنس معها طوال خمس سنوات. وهددها بسجن عائلتها التي ظلت في الهند في حال أبلغت زملاءها في المدرسة عن معاملته لها. ولهذا، كظمت كيم ألمها بصمت. في حين لم يكلف أي إنسان في المجتمع نفسه السؤال عن حياتها. لقد كان كل شخص يثق بنيّات الكاهن الحسنة. وكما وصفته كيم: كان ماهرا في التّضليل. لقد كان الكاهن أحد أعمدة المجتمع الذي ينظر إليّ؛ طفلة فقيرة من العالم الثالث حالفها الحظ لتحظى بكرمه.

وأخيرًا، وعندما بلغت كيم من العمر واحدا وعشرين عاما، تمكنت من الخلاص من سجن معذّبها. في البداية، فكرّت بالهرب وعدم العودة أبدًا، وتنتهي القصة هنا. إلّا أنّها تلقت خبرا من عائلتها في الهند يفيد بأن الكاهن قد هرّب اثنتين من بنات عمها إلى الولايات المتحدة لتحلّان مكانها في المنزل. عندها، جمعت كيم كلّ ما تملكه من شجاعة ووشت به إلى الشرطة. عندئذٍ، اعتقل الكاهن، وحوكم، وسجن. أمّا كيم فقد افتتحت بعد ذلك مركزا للبيع بالجملة خاصا بها، في حين تخصص جزءا من وقتها لمنع وقوع نساء أُخر ضحية للاستغلال الجنسي.

وتعدّ عناصر مأساة كيم من الأمور الشائعة والمشتركة في تجارة الرق الحديثة. فقد كانت صغيرة في بيئة انتقالية غير مستقرة (مخيم لاجئين). وقد تآمر المهرّب (الكاهن) مع شخص آخر قريب من العائلة (زوج الأخت) لاقتلاعها من مجتمعها والتحكم بحياتها. وجرى تهريبها إلى بلد آخر لا تفقه ثقافته ولا قوانينه. كما وهُدّدت بإلحاق الأذى بعائلتها إن رفضت التعاون بصورة كاملة. ونتيجة لذلك، استغلها سجّانها جنسيًّا واحتكر عملها. وعندما هربت، سارع تاجر الرّقيق لإيجاد فتاتين أخريين تحلّان مكانها.

وفي أثناء إعداد هذا الكتاب، أجريت مئات المقابلات مع ضحايا تجارة الرّقيق من الولايات المتحدة، والمكسيك، والصين، وكوريا، والفلبين، وكمبوديا،

وتايلند، والبيرو، والهند، وأوغندا، وجنوب إفريقية ودول عديدة في أوروبا الشرقية. ومثـل هذه القصة تتكرر مرة تلو أخـرى. وقد وجدت أن الضحايا الذين انتزعوا من الدول الفقيرة، وهُرِّبوا عبر الحدود الدولية كانوا 80% من الإناث و50% من الأطفال[12]. لقد أُرسلوا إلى أماكن غير مألوفة لديهم، واحتجزوا فيها عبيدا في غياب الحمايـة القانونية والعائلية. وفي الحقيقـة أن الانتظام في مسار القصة يؤكد تشابه الآليات الشاملة لهذه الصناعة العالمية.

ومثل أي سوق تجارية أخرى، تخضع تجارة الرق لمبدأي العرض والطلب. وعليه، فإنّ عصابات الإجرام هذه تجنى مبالغ ضخمة من العمل غير مدفوع الأجر؛ فـإنْ لم تدفع أجرًا للعمال، فستكـون تكلفة إنتاج البضائع لديك أقل. وكذلك في حـال العبودية الجنسية، أو أعمال السخرة المنزلية، فإنك تحصل على خدمات بشريـة ذات قيمة عالية بتكلفة أقـل أيضا. وبسبب هذه المزايا المالية، يستطيع تجـار الرّقيق أن ينافسوا بنجاح أي سوق أخرى. وسوف يرتفع هامش الربح وفق ارتفاع الطلب.

ونحن قد لا ندرك كيف يرفع كل واحد منا الطلب ضمن مسار اليوم العادي. ويعبّـر كيفين بيلز عـن هذه الارتباطـات التجارية بقوله: ربما يكـون العبيد في باكستان قد صنعوا الحذاء الذي تلبسه، ونسجوا السجادة التي تقف عليها. وقد يكـون العبيد في الهند هم الذين خاطوا القميص الذي ترتديه، وصقلوا الخاتم الذي تضعه في إصبعك[13].

ومـن أجل توافد منتظـم لضحايا جدد، يعتمد محتكـرو العبيد على تجار الرّقيق لملء مخزون العرض لديهم. ويمكن أن يكون تاجر الرّقيق شركة توظيف، أو شخصـا يقوم بعملية التهريب، وغالبًا ما يقوم الأفراد بالدورين معًا؛ التجارة والتهريـب. إنهم لا يواجهون مشكلة في تلبية الطلـب إلا في حالتين؛ الأولى عند شحّ الموارد وندرة العثور على فرائس جدد، والأخرى عندما تُهدّد فِعْلتهم بخطر

حقيقـيّ. وهاتـان الحالتان لا مكان لهما في عالمنا الحالـي. بل على العكس من ذلك؛ هناك فائض من المُجنّدين المحتملين، إضافة إلى أن فرصة الخطورة شبه منعدمة. وعليه، فإن هذه التجارة في تزايد مستمر. ويضمن تفشّي الفقر، والفروق الطبقية، وجود خزان من المجنّدين بعمق المحيط. فقد يلجأ أولياء الأمور الذين يعانون من الفاقة إلى بيع أطفالهم، أو أنهم معرضون لعمليات النصب والاحتيال التـي تسمح لتجّار الرّقيق بالتحكم بحياة أبنائهـم وبناتهم. وقد ترضخ الفتيات الصغيـرات في المجتمعـات الفقيرة إلى القبول بالعمل فـي أماكن بعيدة مع ما يرافق ذلك من مخاطر محتملة. ويكون الفقراء مستعدين لقبول قرض يمكن أن يستغلـه تجار الرّقيق لاحقًا لسلب حريتهم. ولهذا، فـإن هذه المسارات جميعها تحمل معها أعدادًا كبيرة من الضحايا الغافلين الذين يتحولون إلى بضاعة بثمن بخس في سوق عرض الرّقيق.

يقـول السيناتور سـام براونباك عن ولاية كنساس: إن جانب العرض من المعادلـة مظلم إلى حـد كبير. ففي العالم اليوم خمسـون مليون شخص مشرد ولاجـئ. ويوفر هذا الخزان من المشردين فرصـة مواتية لاستغلالهم من تجار الرّقيق[14].

فـي مرحلة الاقتصاد الزراعي الأمريكي، كان تجار الرّقيق يعدّون امتلاك العبيد استثمارا. وكانت تكلفة جمع العبيد، ونقلهم، وإعدادهم للخدمة قبل وصول الوجهة النهائية مكلفة جدًّا. ومع أن المالك كان يعامل العبد معاملة الحيوان عادة، إلا أنهـا تشبه معاملة ثـور غالي الثمن. وكان المالك يهـدف إلى استرجاع قيمة استثمـاره طوال الفترة الزمنية لحياة العبد. ولهذا، كان إثبات الملكية القانونية يخدم هدفًا مهمًا.

وفي تجارة الرق الحديثة، يؤدي التضخم الحالي في عدد العبيد، والقدرة على نقلهم إلى مسافات بعيدة في فترة زمنية قصيرة نسبيًّا، إلى تغيير اقتصاديات

ملكيــة العبيد إلى درجة كبيرة. وبما أن التكاليف تنخفض بسرعة، فإن العبد لم يعد استثمارًا مجديا على المدى الطويل. وهناك قضية تكاد لا تذكر وهي أن ملكية العبيــد في الدول جميعها غير قانونية. وليس هنــاك ما يغري المالك بالاهتمام كثيرًا بصحة عبده. إن وصف العبد الحالي بأنه شيء يسهل رميه والتخلص منه هــو وصف صحيح؛ إنه بطاريــة مستهلكة. فإن لم تعد هنــاك فائدة تُرجى منه، فيمكن الحصول على عبد آخر زهيد الثمن. (15)

وعلى الرغم من هذه التوجهات الطارئة في الأسواق العالمية، إلا أن الأشكال التقليديــة للعبودية لا تزال قائمة. فقد وُجدت أعمال السخرة من أجل ردّ الدين لقرون طويلة، وما تزال حتى اليوم من أكثر أشكال العبودية شيوعًا. ويحدث هذا الفعل الاستعبادي عندما يقع شخص ما تحت سيطرة أحد الملاّكين الأثرياء إثر استدانة مبلغ مالي قليل منه. بعدئذٍ، يضيف الثري فوائد ربوية عالية ومصاريف إضافيــة إلى القرض لدرجة يستحيل فيها على المَدين سداده. وقد يقضي عبيد الديــن حياتهم كاملة في خدمة مستعبــد واحد، بل وقد ينتقل التزامهم هذا إلى أحفادهم.

وما حالة بُندا إلّا خير مثال على هذا العمل الاستعبادي؛ إنّه عبد صادفته في أثناء رحلتي إلى الهند. لقد وقع بُندا ضحية لصاحب مطحنة أرز، أعطى الفلاحين قروضًــا صغيرة، ومن ثم استعبد بها القرية كلها. كان الفلاحون يكدحون طوال 18 ساعــة يوميًّا، ويُمنعون من مغادرة المكان. وفي أحد الأيام، وبعد سنوات من الاضطهــاد والقهر، لم تستطع زوجة بُندا مواصلــة تحمل هذه المعاناة فأقدمت على الانتحار. وظل بُندا ينوء تحت عبء الألم لفقدان زوجته. وفي يوم ما، طرح الخوف جانبًا عندما رأى بابًا مفتوحًا، فولّى هاربًا.

ولأن مالك المطحنة لا يتساهل مع أي تمرد أو عصيان، فقد أرسل صائدي الجوائز يتتبعون أثره فأمسكوه، وأعادوه إلى المطحنة، وأحضروه أمام المالك الذي

جمع العبيد كلهم في ساحة المطحنة. ولجعله عبرة لمن يعتبر، ظل المالك يجلد بُنـدا بعصا حتى أوشك على الهلاك، ثم قيده وهو مغمى عليه، وربطه إلى جدار في مبنى نوم العبيد. وأصبح ذلك المكان سريره لما تبقّى من عمره في مطحنة الأرز تلك. وكان يقوم بعمله اليومي، ومن ثمَّ يعود ثانية إلى مَربطه.

إلا أن مأسـاة بُنـدا انتهت نهاية سعيدة؛ فقد شنّـت منظمة مناهضة للرّق تدعـى بعثة العدل الدوليـة International Justice Mission = IJM غارة على مطحنة الأرز وحررت بُندا وجميع أفراد قريته. واعتقلت الشرطة صاحب المطحنة، وقدّم للمحاكمة على جرائمه.

وفـي الحقيقـة أن هـذا الحـدث كان المفاجأة غيـر المتوقعة فـي رحلتي لاستقصاء ظهور العبودية الحديثة. وقد وطّنت نفسي عاطفيًّا للغوص في أعماق القنـوط واليأس. وحتى أكـون صادقًا، فقد توقفت في بعض المحطات الكئيبة فـي أثناء رحلتي. لقد تألمت كثيرًا في يـوم استخفيت فيه لاستقصاء أحد بيوت الدعارة في مدينة فنوم بنه في كمبوديا. في ذلك اليوم، طلب إلي صاحب الماخور اختيـار واحدة من بين مجموعة فتيات صغيـرات السّنّ، لا تتجاوز أعمارهن 13 سنـة، تكدّسن أمامي. وقال لـي: باستطاعتك أخذ فتاتين لقضاء ليلة معهما إذا مـا دفعت بضعة دولارات زيادة عن السعر المتعارف عليـه. يومها، تألمت كثيرًا لأنني لم أستطع أن أتخيل كيف يمكن لهؤلاء الصغيرات تحمّل هذا العرض المهين الذي يتكرّر عشرات المرات كل ليلة.

ولكـن رحلتي لم تنته في محطة اليأس علـى أيّ حال؛ لقد قابلت مجموعة شجاعـة من مناهضي العبودية الذين يأبـون الاستسلام، لقد أشعروني بأني قد عدت إلى الأيام الخوالي، فهؤلاء الأبطال الجدد، مثل مناهضي العبودية القدامى، لا يبـددون جهودهم في إزالة العراقيـل التي تعترض سبيل حركة مناهضة الرق فقـط. بـل إنهم، بكل بساطـة، يرفضون أن يوجد في هـذا العالم شخص يمكن

أن يُحتجز على أنه متاعا لشخص آخر يمتلكه. ومن بين هؤلاء الأبطال لوسي بورجا، إنها تنقذ البنات والأولاد من شوارع مدينة ليما، عاصمة البيرو، في حين يمدّ بادري سيزار لوديسرتو يد العون إلى البنات والنساء الشابات المهرّبات عن طريق عصابات منظمة (مافيات) في أوروبا الشرقية. أما آنا رودريغيز فتعمل على إغلاق بيوت الدعارة، وتحرير العمال السّخرة من الحقول الزراعية في فلوريدا. بيد أن سوزان كوبيدج حرصت أن يكون مصير تجار الرّقيق في السجون الفيدرالية، وأن يقضوا أحكامًا طويلة جزاءً لجرائمهم.

لم يذهب أيّ منا بعيدًا بحثًا عن مُستعبَدين، ولم يكن في نيّة أي منا أن يكون مناهضا للعبودية. وكل ما فعلناه هو مدّ يدّ العون إلى لاجئ فقير، أو إلى طفل شوارع مشرّد، أو إلى أحد الناجين الباحثين عن العدالة بعد تعرضه إلى أبشع صور الاتّجار بالبشر. إن الانتقال من عمل إنساني إلى المطالبة بإنصاف ضحايا العبودية والاتّجار بالبشر، هو الجامع المشترك بين هؤلاء المناهضين للرق. وقد هدفت أن أجعل هذا الكتاب دليلا لمناهضي العبودية الجدد. ولهذا، فإني لا أزعم أنه دراسة شاملة للعبودية في القرن الحادي والعشرين، سواء داخل الولايات المتحدة أو في أنحاء العالم كلّه. إن هذا الكتاب يتتبّع مسار هؤلاء المناهضين الاستثنائيين في مواقعهم المختلفة؛ إنّه يصف مشاعر الضحايا الذين وقعوا في شَرَك العبودية، كما يستعرض أمثلة وحالات من التاريخ والقوى الاجتماعية التي كانت تتحكم بتجارة العبيد. وإضافة إلى ذلك، يطلعنا هذا الكتاب على كيفية لجوء تجار الرّقيق، الذين يلاحقهم المناهضون، إلى القوة والعنف لاستغلال الضعاف الذين لا حول لهم ولا قوة. كما يرشدنا إلى الاستراتيجيات التي يستخدمها المناهضون للعبودية من أجل تحرير المُسْتَعْبدين.

ويتبين لنا من هذه الحكايات أن مناهضي العبودية الجدد ليسوا من قالب واحد؛ فالنساء اللواتي يحتضنّ الأطفال المحاربين في أوغندا، يعملن في عالم

مختلف عن عالم مناهضي العبودية في مدينة لوس أنجلوس، والذين يسعون لتحرير عمال السخرة، والأعمال القسرية في مصانع الملابس. وسنرى أيضا كيف أن رسامًا تايلنديًّا يوفّر الملجأ والمأوى للأطفال المهرّبين عبر حدود بورما. في حين يلجأ محام مولود في أمريكا إلى النظام القضائي لتحرير قرية كاملة في أنحاء أخرى من جنوب آسيا. ويعتمد بعض هؤلاء المناهضين للعبودية في عملهم على إيمانهم بالله. في حين يستند آخرون على مخزون الحب في داخلهم، وثقتهم في النظام القضائي.

وبالرغم من مواقفهم الفريدة، فإن هؤلاء المناهضين يشتركون في فهم دورهم التاريخي، إذ يدركون أن حرية الإنسان تقف عند مفترق طرق مصيري في هذه الأيام. ففي هذا العالم، هناك قوى نافذة تريد تحويل البشر إلى بضاعة يمكن بيعها وشراؤها كأي سلعة مادية أخرى. إن رفع شعار ليس للبيع يؤكد على أن لكل إنسان حقًا غير قابل للتصرف في أن يكون حرًا كما خلقه الله.

إن هدفي الرئيس من هذا الكتاب هو تحفيز الآخرين ليعلنوا: أنا لست للبيع، أنت لست للبيع، ويجب ألا يكون أي إنسان سلعة للبيع. ولا شك أن المناهضين للعبودية الذين يتناول نشاطهم هذا الكتاب هم أشخاص استثنائيون، ولكنهم لا يستطيعون الانتصار في هذه المعركة لوحدهم؛ سيُغلبون ويُقهرون إنْ لم نقدّم لهم الدعم والمساعدة، كما أنهم يحتاجون إلى متطوعين جدد لمناصرتهم في كفاحهم لإلغاء العبودية.

تقدّم هذه الطبعة الجديدة من كتاب «ليس للبيع» دراسات حالات وبحوثًا حديثة. والأهم من ذلك أني أرّخت في هذه الطبعة لحركة مناهضة العبودية الناشئة حول العالم. لقد نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في اليوم نفسه الذي انطلقت فيه حملة ليس للبيع. وسوف تقرأ في الصفحات اللاحقة كيف مكّنت هذه الحملة الشخصيات الرئيسة الواردة في النسخة الأولى من مواصلة

أعمالهـم البطولية. وقد حققنـا انتصارات باهرة، ومنها، المشاركة مع كرو نام Kru Nam لبناء قرية لأكثر من 125 طفلا تحرروا على يد هذه السيدة في شمال تايلنـد. كمـا أنشأنا فريقًا مع لوسي بورجـا Lucy Borja لتأمين مأوى ومستقبل جديد للمئات من أطفال الشوارع المشردين في ليما، عاصمة البيرو. كما أنشأنا أكثـر من 40 مكتبًا إقليميًّا في أمريكا الشماليـة لمتابعة حالات الاتّجار بالبشر، وتوثيقها وتعيين محاميين حسب خطط عمل وبرامج إقليمية.

وبهذا الخصوص، فإن الطبعة الثانية توضح بجلاء أن نسائم الحرية توحّد الشعوب على مستوى العالم، ذلك أنه لم يعد بمقدورنا بعد الآن الوقوف متفرجين، فـي الوقت الذي يعيش فيه ملايين الأفراد في مستنقع العبودية. وإن أردنا تغيير هذا الوضع، فعلينا عدم الاكتفاء بالأقوال، بل لا بد أن يُترجم ذلك فعلا وعملا.

وكثيرًا ما يقول طلابي في جامعة سان فرانسيسكو أنهم يشعرون بأنهم ولدوا في الزمن الخطأ بعدما حسمت جميع القضايا المهمة في التاريخ. وهم محقّون فـي ذلك، لأننا وصلنا إلى مرحلـة مصيرية في النضال من أجل حرية الإنسان. لقد ارتفعت الستارة، والمستقبل ينتظر ما سيأتي.

وربما يتساءل كلّ منا كيف كان من الممكن أن نتصرف في خضم الصراعات المصيرية في التاريخ الإنساني. هل نثور، ونصمد، ونكون في عداد الشجعان؟

كيـف كان من الممكن أن نتصرف في عام 1942 ونحن نرى الجرائم التي يقترفهـا الجنود النازيون؟ هل كنـا سنقوم بدور المخبرين أو المتفرجين الذين يتظاهرون بالغباء وهم يشاهدون ما يجري من وراء زجاج نوافذهم؟

وأتصـور أننا عشنا في ولاية تينيسي فـي عام 1955، عندما وقفت هاريت توبمـان التي ولدت في العبودية أمام بـاب بيتنا وقالت: إننا نقوم بتهريب العبيد الفارّيـن عبر سكة حديد تحت الأرض، ونحن نحتاج إلى بيوت آمنة، فيها نختبئ

ونستريح ونأكل. لقد أبلغنا النشطاء في حركة تحرير العبيد أنكم مستعدون لفتح بيتكم كنقطة مرور. فهل ستساعدوننا؟ لو أنها جاءت ووقفت أمام بابنا وقالت هذا، فإننا سوف نكون أمام لحظة الحقيقة؛ فهل كنا قد عبّرنا عن رأينا ووقفنا إلى جانب الحق؟

في بعض الأوقات نقرأ التاريخ، ولكن في بعضها الآخر نصنعه. إننا نعيش الآن في إحدى اللحظات المصيرية في الصراع من أجل الحرية الإنسانية. ولذلك، فلسنا بحاجة إلى تخيّل كيف كان من الممكن أن يكون ردّنا عند مواجهة لحظة الحقيقة. نحن العاملون على خشبة المسرح، وباستطاعتنا تغيير رياح التاريخ بأفعالنا. وسوف تنظر الأجيال القادمة إلى الوراء لتحكم على خياراتنا التي اتخذناها؛ محفّزة لهم أم محبطة.

ربما تعتقد أنني أبالغ في الأمر، ولكني لا أعرف أي طريقة أخرى للتعبير عن ضرورة الإسراع بإنقاذ ملايين الأطفال الذين يُجبرون على بيع أجسادهم لمن يستغلونهم جنسيًّا، أو الذين يُكرهون على الكدّ في المصانع أو الحقول الزراعية. وليس أفظع من التدليل على هذا الوضع المأساوي أن أربعين ألف طفل اختطفوا في أوغندا، وحُوّلوا رغمًا عنهم إلى مقاتلين أو إلى عبيد جنس.

لقد أصبح مصير الأطفال حول العالم على المحك. وهؤلاء الأطفال عاجزون عن التحرر وكسر نير عبوديتهم. وكما لاحظ السياسي والفيلسوف الإيرلندي Edmund Burke إدموند بيرك قبل قرنين: «الشيء الوحيد الضروري لانتصار الشيطان هو بقاء الخيّرين مكتوفي الأيدي».